المؤتمر العلمي العربي الثالث لرعاية الموهوبين والمتفوقين

«رعاية الموهوبين والمبدعين... أولوية في عصر العولمة»

شاركت دعاء جبر دجاني من مركز القطان للبحث والتطوير التربوي في المؤتمر العلمي العربي الثالث لرعاية الموهوبين والمتفوقين «رعاية الموهوبين والمبدعين ... أولوية في عصر العولمة»[1]، وقد استمرت فعاليات المؤتمر مدة ثلاثة أيام من 19-2003/7/21 – عمان/ الأردن. وتناولت هذه الفعاليات المحاور التالية: التربية الإبداعية وتعليم التفكير، تجارب وبرامج عربية وعالمية في الكشف والرعاية، والتوجيه والإرشاد الأسري، والفئات الخاصة من الموهوبين الذين يعانون من إعاقات، ودور وسائل الإعلام والجامعات في رعاية الموهوبين، وأخيرا اتجاهات نظرية ودراسات حديثة في الموهبة والإبداع. اشتملت فعاليات المؤتمر على ثلاث محاضرات رئيسية وعامة، واثنتين وأربعين ورقة[2] وورشتي عمل حول المحاور الستة سابقة الذكر، كما كان هناك معرض للكتب التي صدرت في البلاد العربية وتناولت مواضيع عديدة في مجال التربية والتعليم.

أود هنا التطرق إلى بعض الأفكار الهامة التي طرحت في المؤتمر والتي جذبت انتباهي، فلقد أكد العديد من المحاضرين على أن من أهم أسباب النهضة لدى أي أمة من الأمم هو وجود نخبة من الموهوبين التي تنذر نفسها لخدمة بلادها وأمتها. وبيّن الدكتور محمد بن أحمد الرشيد أنه لا بد من الاهتمام بتعليم الأخلاق والقيم للموهوب، فهو في خطر من التكبر والغرور والاستعلاء، كذلك قد يستغل الموهوب موهبته فيما يضر ولا ينفع. وأشار إلى أنه في بعض الأحيان قد لا تتلازم الموهبة مع التفوق الأكاديمي. لذلك يجب عدم قصر الموهبة على ميادين محددة دون غيرها، فميادين الموهبة والإبداع متعددة بتعدد جوانب الشخصية الإنسانية، وأضاف أنه لا بد من اعتبار آراء كل من المعلمين وأولياء الأمور وذوي الخبرة عند تحديد من هو الطفل الموهوب، لتوفير الرعاية والعناية له ولتدريبه على مهارات التفكير السليم.

تناولت العديد من الأوراق تصورات للمناهج التي تنمي الإبداع، منها ورقة حول «تصور مستقبلي لمناهج العلوم في مرحلة التعليم الأساسي»/ مصر، كذلك ورقة تناولت «إدخال تنمية

1. انضم مركز القطان للبحث والتطوير التربوي إلى عضوية المجلس العربي لرعاية المتفوقين. كما أن كافة الأوراق التي قدمت في المؤتمر متوفرة في مكتبة المركز.
2. اشتمل برنامج المؤتمر على ورقة حول أدوار المعلم في التربية الإبداعية للدكتور عامر الخطيب من غزة، إلا أن الدكتور لم يتمكن من الحضور والمشاركة.

مهارات التفكير في الرياضيات»/ السعودية، وأيضا ورقة حول مناهج العلوم بعنوان «كيف تعمل الأشياء»/ مدرسة اليوبيل الأردنية، كذلك قدمت ورقة حول منهاج اللغة العربية الذي ينمي الإبداع بعنوان «برنامج مقترح في اللغة العربية بين النظرية والتطبيق».

وعني المؤتمر كذلك بالفئات الخاصة من الموهوبين والمبدعين، فلقد قدمت الدكتورة سهير عبد الفتاح ورقة مثيرة للاهتمام حول رعاية الأطفال المعاقين عقليا وعضويا وناقشت كيفية اكتشاف مواهبهم، وقدمت عرضا مصوّرا ممتعا لبعض اللوحات والإبداعات التي أنجزها الطلاب المعاقون، بالإضافة إلى مشاهد من عروض مسرحية قام بأدائها بعض الأطفال المعاقين. كما اشتمل المؤتمر على ورقة حول إرشاد الطلبة الموهوبين ذوي التحصيل المنخفض، وبينت هذه الورقة أن ما يقارب 50% من الطلبة المصنفين بأنهم موهوبون هم من ذوي التحصيل المنخفض، وبعد مناقشة هذه الظاهرة أوصت الباحثة في ورقتها بضرورة خلق بيئة تعليمية تشجع التعاون وليس التنافس، وأن يتسم المنهاج بالشمول والانفتاح، وكذلك تخفيف التوقعات العالية من الطلبة الموهوبين. كما قدم الدكتور أحمد الشرايعة عرضا حول برمجية متخصصة بلغة الإشارة العربية تساعد على التواصل والحوار مع فئة الصم والبكم من الطلبة الموهوبين وغيرهم.

وبرزت من خلال فعاليات المؤتمر انتشار ظاهرة المراكز التربوية الراعية للموهوبين والمبدعين، أذكر منها على سبيل المثال: المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين في عمان، وهذا المجلس هو الراعي لهذا المؤتمر، ومركز المدينة المنورة لرعاية الموهوبين في السعودية، ومركز رعاية الموهوبين في جدة، ومؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله لرعاية الموهوبين في السعودية، ونادي الإبداع الطلابي في الرياض، كذلك كان هناك عرض لبعض جوائز التفوق العلمي على كافة المستويات، مثلا جائزة تبوك للتفوق العلمي في السعودية، والمستمرة منذ ثلاثة عشر عاما، والتي تستهدف الطلبة والعلماء على حد سواء، كذلك أعلنت مؤسسة الفكر العربي في بيروت عن جائزة مالية قيّمة للموهوبين من أبناء وبنات الأمة العربية، كما عرض الدكتور خليفة السويدي تجربة جائزة حمدان بن راشد آل مكتوم للأداء العلمي المتميز/ دبي.

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من المراكز المخصصة لرعاية الموهوبين، وتخصيص جوائز مالية قيّمة للمبدعين والموهوبين، إلا أن بعض الجلسات أشارت إلى عدم جدوى هذه الرعاية العشوائية غير المحدودة والتي تخضع للأهواء والميول والعلاقات الشخصية، فمثلا يرى الدكتور فتح الله الشيخ أن المجتمعات الغربية التي تنعم بالحريات هي مقصد لهجرة المتفوقين والموهوبين من المجتمعات العربية، حيث يجد الموهوبون الرعاية والدعم وحرية البحث العلمي في تلك المجتمعات، وهذا هو السبب في هجرة العقول من المجتمعات العربية. فالمجتمعات العربية تنفق على التعليم وتوليه الاهتمام كما في الدول الغربية، إلا أنها لا تنفق على البحث العلمي كما أنها تشغل مواقع متدنية فيما يخص مؤشرات حرية الصحافة والحقوق المدنية والحقوق السياسية. ويلخص المحاضر أن السببين الرئيسيين في انخفاض مستويات التفوق والإبداع في البلاد العربية وهجرة العقول والأدمغة إلى الغرب هما نقص الرعاية والدعم وتضاؤل حرية البحث العلمي المترافقة مع غياب الحريات الشخصية والحقوق المدنية.

وفي محاضرة جريئة بعنوان «الموهوبون: صناعة عربية للتصدير فقط» طرح الدكتور نخلة وهبة العديد من التساؤلات التي أثارت اهتمام الحضور وعدم رضا البعض منهم، فقد أكد أن رعاية الموهوبين هي سياسة مجتمعية متكاملة يجب أن لا تختزل في مجموعة من التقنيات، فمن حق كل موهوب محاط بالرعاية أن يسأل «لماذا تحيطونني بهذه الرعاية الخاصة، وماذا تعدون لي؟» ويرى الدكتور نخلة أن أصل الرعاية هي تعظيم دور الطفل الموهوب للمجتمع، وهذا يعني أن يكون محاطا بنظام فكري أفضل من النظام الفكري لدى بقية الناس غير الموهوبين. وبما أن الشخص الموهوب هو شخص متميز واستثنائي فهو يحتاج إلى وقت أقل ليقدم إبداعا أكثر غزارة وذا جودة أعلى ويستمر إنجازه الإبداعي لفترة أطول. فالمردود المعنوي والاقتصادي المتوقع إنجازه من الفرد الموهوب أعلى وأكثر من المردود المتوقع الحصول عليه من الفرد العادي. فمن المتوقع أن يشكل الطفل الموهوب للمستثمر الذي يحيطه بالرعاية ـــ أي مجتمعه ـــ عائدا أعلى سواء على مستوى الإبداع أم الزمن أم النوعية. ويتساءل المحاضر «متى تنتهي رعاية الموهوب؟ في أي سنة؟ وفي أي مستوى من الإتقان

والإبداع؟ هل التخرج هو خاتمة الرعاية؟ وإلى متى يفترض التعامل مع الموهوب بصفته كذلك؟» ثم يجيب المحاضر على التساؤلات السابقة فيقول بأنه لا فائدة من رعاية الموهوب في مجتمع مثل مجتمعنا العربي، ففي أي مختبر سيجري تجاربه؟ ومن أي ميزانية سينفق على الأبحاث؟ وأين الحريات التي ستسمح له بالإبداع؟ فالمجتمعات العربية لا توفر البنية التحتية لتحقيق التوقعات من الموهوبين، فالقوانين محدودة وجامدة والمختبرات ضيقة وقديمة وميزانيات البحث العلمي «ميكروسكوبية»، والتقاتل على النفوذ المعنوي والفردي والجماعي لا يسمح بترجمة الأفكار الإبداعية إلى واقع، بسبب التناقض الآني مع ما هو قائم. ويضيف المحاضر إلى التساؤلات الحادة السابقة الأسئلة التالية «ما المنفعة من كل برامج ومراكز الرعاية إذا علمنا أن الموهوب سيتخرج عند انتهاء الرعاية ليصبح فردا عاديا ورقما بين الأرقام، أو ليهجر دياره إلى بلاد توفر له البنية التحتية لممارسة إبداعه؟ وأين الموهوبون الذين استفادوا من الرعاية الخاصة؟ ألا يوجد في العالم العربي حفنة بارزة من هؤلاء؟ هل ذابوا بين كفاءات البلد العادية أم تركوا ديارهم إلى بلاد غربية؟ وإذا لم يتميز هؤلاء الذين تلقوا الرعاية فما الفائدة من رعايتهم وما الفائدة من الدلال المعنوي الذي أحاط بهم؟» ويحاول المحاضر فحص الفرضيات المحتملة التي تجيب على تساؤلاته السابقة فيرى أنه إما أن التشخيص للموهوبين لم يكن دقيقا، فالأشخاص الذين تلقوا الرعاية ليسوا موهوبين، وإما أن برنامج الرعاية والاهتمام الذي أحاط بهم لم يكن فعالا، وإما أن المجتمع العربي ليس مجهزا لاستقبال أفراده المبدعين الذين ينتجون بجودة أعلى وبسرعة أقصر. وبما أن بعض هؤلاء الذين تلقوا الرعاية قد برزوا وتفوقوا في بلاد غير ديارهم، يستنتج المحاضر أن العامل الأكثر حظا لتفسير هذا الواقع هو عدم قدرة المجتمع وعدم إرادته على الاحتفاظ بالموهوبين بين صفوفه، فهناك العديد من الأسباب الداخلية الطاردة للموهوب من بلده والكثير من الأسباب الخارجية الجاذبة. ويرى المحاضر أن رعاية الأطفال الموهوبين من خلال تبني مجموعة من التقنيات هي خسارة للجهد والمال والأدمغة ومكسب لحنق الموهوب على بلده ... ويختتم الدكتور نخلة بالسؤال المؤلم التالي «هل يمكن الوثوق ببلد عجز عن تعميم التعليم الابتدائي لأطفاله، هل يمكن الوثوق به لرعاية الأطفال المبدعين؟» بالتأكيد لم تكن هذه المحاضرة التي قدمها دكتور نخلة وهبة دعوة لوقف الاهتمام بالموهوبين ورعايتهم، إنما كانت صيحة عالية للتوقف والتأمل، ودعوة للإيمان بأن رعاية المبدعين ليست مجموعة من التقنيات فحسب، بل هي سياسة وفلسفة قومية شاملة.

توصيات المؤتمر

خلص المؤتمر إلى توصيات عديدة من أبرزها دعوة السياسة العليا إلى احتضان الموهوبين وتيسير سبل العطاء لهم، وكذلك دعم المؤسسات المختلفة لرعاية الموهبة والإبداع. والعمل على إنشاء المؤسسات القادرة على احتضان الإبداع وتوسيع ميادينه ليشمل كافة جوانب الشخصية الإنسانية، والعمل على بناء بيئة محفزة وجاذبة للموهوبين من حيث تأمين الحريات وتحديد ميزانيات للبحث العلمي وزيادة دخل الأفراد، وتنسيق الجهود بين المدرسة والأسرة لرعاية الأطفال الموهوبين والاهتمام بالموهوبين ذوي الاحتياجات الخاصة. كذلك التعاون مع وسائل الإعلام من حيث تقديم البرامج والمواد اللازمة لدعم الموهبة والإبداع. كما كانت هناك توصيات تتعلق بتأهيل المعلمين من حيث إدراج مساقات خاصة للمعلمين قبل وأثناء الخدمة حول تعليم الطفل الموهوب، كما أوصى المؤتمر بضرورة الاهتمام بتعليم مهارات التفكير، ودعا إلى وضع برامج موحدة لتنمية التفكير والإبداع لدى المتفوقين، وكذلك العمل على تجميع معايير تشخيص الطلبة الموهوبين والعمل على توثيق تجارب الدول العربية في مجال الموهبة والإبداع.

عرضت هذه الورقة لمحة موجزة عن فعاليات المؤتمر العلمي العربي الثالث لرعاية الموهوبين والمتفوقين «رعاية الموهوبين والمبدعين ... أولوية في عصر العولمة»، فقد تطرقت أوراق المؤتمر – كما رأينا – إلى العديد من أساليب التشخيص والرعاية وناقشت تجارب ونظريات عديدة لرعاية المبدعين، ولكن أبرز ما لفت نظري في الأوراق التي قدمت هي التساؤلات الحادة التي أثارها الدكتور نخلة وهبة حول مستقبل الأطفال الموهوبين، والإمكانيات التي تقدمها المجتمعات العربية لدعم الموهبة والتميز بعد التخرج، ويبدو لي أنه يجب وضع هذه التساؤلات نصب أعيننا قبل البدء بتصميم برامج وبناء مراكز ومنح جوائز تحث على التفوق والإبداع.